المعتزلة

مقدمة :

الحسن البصري : ولد لسنتين من خلافة عمر بن الخطاب عام (21هـ) وتوفي عام 110 . أزيّن هذا الكتاب بالكتابة عن هذا العلم من أعلام المسلمين العظام . فهو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ، كان من سادات التابعين وكبرائهم ، وجمع كل فن من علم ، وزهد ، وورع وعبادة ، كان أبو يسار رقيقاً ، وكانت أمه (خيرية) مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ وربما غابت في حاجة فيبكي ، فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه ، فدر عليها ثديها فرضع حتى روى . فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة والشجاعة من بركة النبي ﷺ[1] .

ولد الحسن على الرق ثم اعتق هو ووالداه وكان أبو يسار مولى زيد بن ثابت[2] .

بيئة الحسن وبلاغته :

لقد ولد في المدينة المنورة وتربى في منزل أم سلمة رضي الله عنها ، وأخرجته إلى أصحاب رسول الله فدعوا له بخير . وأدرك كثيراً من الصحابة وروى عنهم[3] وتعلم منهم ، وكان فصيح اللسان قوي البيان . قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف . قيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن .

---

(1) راجع ترجمة الحسن بوفيات الأعيان ج1 ص 408 وفي ترجمة تهذيب التهذيب ج2 ص 265 وفي حلية الأولياء ج2 ص 131 .

(2) أي أعتقه زيد والمولى يطلق على العبد والسيد على السواء .

(3) يقول أبو المحاسن أنه رأى طلحة وعلياً وروى عن عمران بن حصين والمغيرة بن شعبة وعبد الرحمن بن سمرة والنعمان بن بشير .

وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً، وأصدقهم قولاً لا يخاف في الله لومة لائم، وأكثر كلامه حكم وبلاغة، ومواقفه بقول الحق تزل دونها الأقدام.

فمن مواقفه: لما ولي عمر بن هبيرة العراق وأضيفت إليه خراسان في أيام يزيد بن عبد الملك استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين، والشعبي وذلك عام 103. فقال لهم: إن يزيد خليفة الله، استخلفه على عباده، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة. وقد ولاني ما ترون. فيكتب إليَّ بالأمر من أمره. فأقلده وأسير كما يريد. فما ترون؟

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية (مداراة). فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟

فقال: يابن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله. إن الله يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله. وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، ثم لا ينجيك إلا عملك[1].

ومما ورد أن الحجاج بن يوسف الثقفي دعا لمؤتمر علمي فيه الحسن البصري والشعبي وابن سيرين وغيرهم. أراد الحجاج أن يصدر المؤتمر فتوى بلعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فطرح على المؤتمرين سؤالاً قال فيه: ما تقولون في أبي تراب[2]؟.

قال الحاضرون قولاً فيه تقية (مداراة) والحسن البصري ساكت لا يتكلم. فقال له الحجاج: ما لي أراك ساكتاً يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: دعهم يتكلمون. فقال الحجاج: ما تقول أنت في أبي تراب؟ فقال الحسن: أنت ما تقول بالعشرة المبشرين في الجنة متى بشروا بالنار؟ أعلي منهم أم لا؟ وما تقول في أهل بدر بعد قول الرسول ﷺ: (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) أعلي منهم أم لا؟ وما تقول في أهل بيعة الرضوان، بعد أن قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

---

(1) وفيات الأعيان ج1 ص 409.

(2) أبو تراب من ألقاب علي رضي الله عنه.

﴿يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ حتى سخط الله عليهم أ علي منهم أم لا؟ أشهد بأن علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج الزهراء البتول أفضل الصحابة بعد أبي بكر وعمر.

فنهض الحجاج قائماً وضرب كرسيه برجله فكسره وخرج من المؤتمر، فقال الشعبي: أغضبت الأمير يا أبا سعيد. قال: (مه) يا شعبي كنت أقول عنك فقيه الكوفة. يقولون، وتقول معهم؟ فقال الشعبي: إن لي من كلامي مخرج. قال الحسن: هذه أعظم في الحجة عليك.

وأما علم الحسن فكان دائرة معارف وعلوم شتى. ويظهر أنه كان للبيئة التي عاش فيها تأثير عظيم على معارفه. فقد عرفنا أنه ولد في أحد بيوت رسول الله ﷺ، ثم كان مولى لزيد بن ثابت الصحابي العلامة ﷺ، ثم اتصل ببعض الصحابة، وخالطهم وروى عنهم، ثم أقام بالبصرة، وشاهد الأحداث التي جرت بين الصحابة. وهذا ما جعل من الحسن الرجل العالم الزاهد الذي لا يتزمت، المعتدل في آرائه. وكان درسه مقصداً لكل طالب معرفة.

لا فرق في ذلك بين طالب الفقه أو طالب الأدب أو طالب الحديث والتفسير أو طالب العقائد أو طالب الوعظ والإرشاد. فدرسه هو النبع الأول الذي فاض بمبادئ العلوم الإسلامية[1] ومن هذا الدرس نبتت شجرة المعتزلة[2] وفي هذا الدرس أثير الكلام في القدر وفي هذا الدرس كانت تذكر الآراء الجديدة لتمحص ويعرف مدى صحتها، حتى الآراء السياسية كنت تسمعها في هذا الدرس، والحكم على الخلافة والخلفاء والأمراء[3].

---

(1) قال أبو حيان التوحيدي في وصفه لدرس الحسن: (يجمع مجلسه ضروباً من الناس، وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه، ويفيض عليهم بأفنانه، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يتبعه في كلامه كالبحر العجاج تدفقاً. يجلس تحت كرسيه قتادة، وواصل وأشباه هؤلاء.

(2) قال صاحب النجوم الزاهرة: واصل بن عطاء هو رأس المعتزلة. وكان في درس الحسن حين أقبل شخص فقال: يا إمام الدين.

(3) انتقد الحسن معاوية علناً في أربع خصال وسماها موبقات. خروجه على هذه الأمة بالسفهاء، واستخلافه يزيد وهو سكير، وادعاءه زياد وقد قال رسول الله ﷺ (الولد للفراش وللعاهر الحجر) وقتله حجر بن عدي. وسأله رجل عن الفتن فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء. فقال له: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فقال: نعم ولا مع أمير المؤمنين.

آراء الحسن في العقيدة :

أما في الإيمان. فإنه يرى فيه أنه لا يكون إيماناً حقاً إلاَّ إذا كان يحمل صاحبه على العمل. فمن لم يؤد الصلاة فهو غير مؤمن بوجوبها. وليس معنى هذا أنه كافر بها؛ لأن الكافر بالصلاة يكون مؤمناً بعدم وجوبها. وليس تارك الصلاة كذلك. وكذلك كل من لم يؤد فرعاً من الفروع، فهو ليس مؤمناً حقاً بالوجوب ولا بعدم الوجوب. ومرتكب الكبيرة عنده كذلك؛ أي ليس مؤمناً بالحرمة وإلا لاجتنب، وليس مؤمناً بعدم الحرمة وإلا لكفر. ورأي الحسن في الإيمان يشبه رأي سقراط في الفضيلة[1] حيث يرى أن معرفة الفضيلة يستلزم العمل بها.

وأما رأي الحسن في الإنسان هل هو مجبور أو مختار فقد نقل عنه ما يدل على أن الإنسان له الاختيار المطلق في أفعاله خيرها وشرها. كما نقل عنه أن الخير من الله والشر من الإنسان. روى ابن المرتضى[2]: أن الحجاج كتب إلى الحسن: (بلغنا عنك في القدر شيء فاكتب إلينا بقولك). فكتب الحسن إليه رسالة منها: (فافهم أيها الأمير ما أقوله: فإن ما ينهى الله عنه فليس منه لأنه لا يرضى عما يسخطه من العباد لأنه تعالى يقول ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ فلو كان الكفر من قضائه وقدره (لرضي عن عمله) ثم قال: واعلم أيها الأمير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يعولون في أمر دينهم (بزعمهم) على القضاء والقدر، ثم لا يرضون في أمر دنياهم إلا بالاجتهاد والبحث والطلب والأخذ بالحزم فيه، ولا يعولون في أكثر دنياهم على القضاء والقدر. ثم يقول مستشهداً ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ فلو كان هو الذي دساها لما خيب نفسه. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

---

(1) سقراط: فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (470-400ق.م) ولقد دافع كثيراً عن الحقائق الخلقية ضد السوفسطائيين الذين أنكروا الحقائق الخلقية.

(2) هو محمد مهدي بن مرتضى بن محمد الطبطبائي النجفي توفي عام 1212هـ 1797م.

نشأة المعتزلة وسبب تسميتهم :

ظهر جماعة في صدر الإسلام اعتزلوا الحرب التي قامت بين سيدنا علي وأصحاب الجمل وبين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وآثروا البعد عن الفريقين تجنباً لإثارة الفتن، وحرصاً على توحيد كلمة المسلمين. ولما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة قال هؤلاء: نشتغل بالعلم والعبادة ونعتزل الناس. فسماهم البعض معتزلة. وهذه التسمية لغوية وفكرة الاعتزال كانت عندهم سياسية. من هؤلاء عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص. وأبو موسى الأشعري وغيرهم.

أما المعتزلة الفرقة الكلامية المعروفة التي نشأت في أوائل القرن الثاني الهجري هي التي يتكلم عليها علماء الكلام. وسبب نشأتها وتسميتها هو أن رجلاً أتى الحسن البصري في درسه الآنف الذكر. وقال له: يا إمام الدين[1] لقد ظهر في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر. والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا في ذلك؟.

ففكر الحسن في ذلك. وقبل أن يجيب (كما يقول الشهرستاني) قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد. يقر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال: الحسن اعتزل عنا واصل. فسمي هو وأصحابه بالمعتزلة[2] واتبعه عمرو بن عبيد. أما الحسن فأجاب بقوله: إن مرتكب الكبيرة مؤمن. وأمره في كبيرته مفوض إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

---

(1) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج1 ص 60 هامش الفصل بين الملل والأهواء.

(2) الملل والنحل ج1 ص 60.

واصل بن عطاء :

ولد عام 80 من الهجرة وتوفي عام 131 وفق 700-748م[1] هو واصل بن عطاء الغزال، أبو حذيفة من موالي بني ضبة أو بني مخزوم، وهو رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين. وهو الذي نشر مبدأ الاعتزال في الآفاق. بعث من أصحابه عبد الله بن الحارث إلى المغرب، وحفص بن سالم إلى خراسان. والقاسم إلى اليمن، وأيوب إلى الجزيرة، والحسن بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينيا. ولد واصل بالمدينة المنورة ونشأ وترعرع بالبصرة[2].

وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً. قال أبو العباس المبرد في الكامل: كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب؛ وذلك أنه كان ألثغَ قبيحَ اللثغة في الراء. فكان يخلص كلامه من الراء ولا يُفْطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه. ففي ذلك يقول شاعر من المعتزلة وهو أبو الطروق الضبي يمدحه في طول خطبه واجتنابه الراء:

عليم بإبدال الحروف وقامع ... لكل خطيب يغلب الحق باطله

ومما يحكى عن واصل أنه بلغه قول بشار بن برد وقد صوب رأي إبليس بقوله[3]:

النار مشرقة والأرض مظلمة ... والنار معبودة مذ كانت النار

---

(1) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج5 ص 60 ترجمة 739 تجد فرقاً بعيداً في وفاته فيقول ولد عام 80 وتوفي عام 181 أي عاش مائة سنة.

(2) راجع الأعلام للزركلي ج9 ص 121.

(3) كان بشار بن برد كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يقول بشار بالرجعة ويكفر من يخالفه. فقد حضر محفلاً فيه كثير من الخطباء عند والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز. فخطب واصل خطبته منزوعة الراء، فقال فيه بشار:

تكفلوا القول والأقوام قد حفلوا ... وحبروا خطباً ناهيك من خطب

فقام مرتجلاً تغلي بداهته ... كمرجل القين لما حفّ باللهب

وجانبَ الراء لم يشعر به أحد ... قبل التصفح والإغراق بالطلب

فقال (واصل): أما لهذا الأعمى المكنى بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه.

فقال: هذا الأعمى ولم يقل: بشار بن برد ولا الضرير لمكان الراء. وقال: لبعثت ولم يقل: لأرسلت. وقال: على مضجعه ويبعج ولم يقل: على فراشه أو مرقده ويبقر[1] وكان واصل تقياً ورعاً مخلصاً لما ذهب إليه، وله كثير من التصانيف منها (أصناف المرجئة) و(كتاب التوبة) و(كتاب معاني القرآن) وغير ذلك.

هل لقب المعتزلة يشعر بالذم؟

أصل إطلاق هذه الكلمة على هذه الفرقة في أول أمرها كان إطلاقاً عادياً لا يشعر بمدح ولا ذم. ويظهر أن كلام الحسن كان كالأمثال التي يتناقلها الناس فبقوله: (اعتزلنا واصل) سموا بالمعتزلة. ولكن هذا اللقب بعد مرور الزمن، أصبح لقب ذم وخصوصاً بعد فتنة القول (بخلق القرآن) التي تبناها المأمون والمعتصم، وأهين بسببها أكابر العلماء كالإمام أحمد والبويطي وغيرهما. وهذا هو السبب الأعظم الذي من أجله جعلت المسلمين يكرهون المعتزلة، وينفرون من مبادئهم وآرائهم وينقمونها عليهم (ولو كان كثير منها جدير بالاعتبار) وساعد على هذا تحديهم للفقهاء والمحدثين. ولا شك أن لهؤلاء وأولئك قداسة في نفوس العامة؛ لأنهم هم المحافظون وحدهم على التراث النبوي، والقائمون على الدعوة للتمسك بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ.

والناظر في تاريخ المعتزلة الأوائل كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد[2] وعثمان الطويل وهم رؤساء المعتزلة في عصرهم الأول يرى أنهم قاموا بواجب عظيم نحو الدين الإسلامي. وهم كانوا يدفعون هجوم الأمم التي دخلت تحت حوزة الإسلام.

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ.

(2) هو عمرو بن عبيد التيمي أبو عثمان شيخ المعتزلة بعصره ومفتيها وأحد الأتقياء الزهاد المشهورين واشتهر بعمله وزهده وأخباره وفيه قال أبو جعفر المنصور: (كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد) وله كثير من الكتب منها: الرد على القدرية و(التفسير) وقد رثاه عند موته المنصور. ولد عام 80 وتوفي 144هـ الأعلام ج5 ص252.

وكان أحد أصولهم الخمسة[1] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان لهم دعاة يجوبون الأقطار الإسلامية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لوجه الله عز وجل. ومن كان هذا من مبادئهم لا يعقل أن يبغضهم المسلمون، زد على ذلك أنهم كانوا أهل زهد وتقوى. وقد رثى أبو جعفر المنصور عمرو بن عبيد رثاء يدل على تقدير الملوك لزهدهم وتقواهم، وما كلمة أبي جعفر المأثور (كلكم طالب صيد. غير عمرو بن عبيد) إلاَّ رمز للتقدير والاحترام. ومما جاء في رثاء المنصور لعمرو (ولم يعلم أن أحد الملوك رثا من هو دونه) غير المنصور:

صلى الإله عليك من متوسد ... قبراً مررت به على مران[2]

قبراً تضمن مؤمناً متخشعاً ... عبد الإله ودان بالقرآن

وإذا الرجال تنازعوا في شبهة ... فصل الحديث بحجة وبيان

ولو أن هذا الدهر أبقى صالحاً ... أبقى لنا عمراً أبا عثمان

دفاع المعتزلة عن الإسلام:

دخلت طوائف كثيرة إلى الإسلام من مجوس وصابئة ويهود ونصارى وكان منهم من يظهر الإسلام تقية ويبطن غيره. لذلك كانوا ينشرون بين المسلمين ما يفسد دينهم، ويشكك في عقائدهم. فتصدت المعتزلة للرد على هؤلاء بقوة وفلسفة لا تجارى. وكان لهم الفضل الأول في الدفاع عن عقائد الإسلام بالحجة والبرهان القاطع، وكانوا يعتمدون في الاستدلال على العقل، وكانوا يحكِّمون العقل في كل شيء، ولا يحد ثقتهم بالعقل إلا احترام أوامر الشرع. من هنا نجحوا في إفحام الملحدين الذين لا يؤمنون بالدليل النقلي من كتاب أو سنة.

من هؤلاء (المانوية) وهم أصحاب ماني الذين انتشرت ديانتهم في بلاد الفرس.

---

(1) المبادئ الخمسة عند المعتزلة هي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سيأتي أعلاه.

(2) الرماح: واحدها مرانه والمعنى: على الجهاد والنضال.

وكانوا يقولون: إن العالم نشأ عن أصلين، هما النور والظلمة. وعن النور يصدر كل خير، وعن الظلمة يصدر كل شر[1] وانتشر الزنادقة في بلاد العراق أمثال بشار بن برد الذي صوب رأي إبليس حيث اعتقد أن عنصر النار أكرم من عنصر التراب. وصوب بشار عبادة النار فقال:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وعلى ذلك صالح بن عبد القدوس، فتصدى لهما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد. فحمل المعتزلة حملة شعواء لا هوادة فيها على كل مخالف لتعاليم الإسلام. وما دعا المعتزلة إلى وضع مبدأ العدل، وما ترتب عليه من خلق الأفعال والحسن والقبح الذاتيين إلاَّ ما رأوا من تغالي جَهم بن صفوان وأصحابه في جعل الإنسان كالجماد تجري على يديه الأعمال كما يجري الماء على الحجر الأصم.

يقول صاحب الانتصار[2]: إن المعتزلة هم أرباب النظر دون غيرهم من الناس. وهل على الأرض أحد رد على (الدهرية)[3] إلاَّ المعتزلة كإبراهيم النظام، وأبي الهذيل العلاني كمجلس أبي الهذيل مع هشام بن الحكم، والنظام مع رافضة عصره. وخلاصة القول: كان المعتزلة أهل حرب على أهل العقائد المخالفة يلزمونهم الحجة ويدعونهم إلى الحجة، وكانوا من سعة النظر ومعرفة الدين بحيث كانوا موضع الفتيا. وكانوا مؤمنين بدعوتهم إيماناً عميقاً جعلهم يركبون كل صعب، في سبيل نشرها. سواء كان ذلك في معركة الأفكار، أو في السفر والحط والترحال فلا يثنيهم بعد المسافات، ولا الحر القائظ، ولا البرد القارس.

يروي لنا المؤرخون أن دعاتهم بلغوا خلف الصين، وبلغوا المغرب الأقصى. فهم

---

(1) ومثل المانوية في عقائدهم (الديصانية والمرقونية) وظهرت هناك السحنية.

(2) الانتصار لابن نباتة ص 72.

(3) هم الذين ينكرون البعث أخذاً من قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلا ٱلدَّهْرُ﴾ الجاثية آية 24.

أشد المسلمين دفاعاً عن الإسلام في ذلك الزمان[1].

طبقات المعتزلة

يجب على كل كاتب عن مذهب أو فرقة أن يكون حيادياً ومنصفاً. فإننا نجد بعض من يكتب عن المعتزلة (وهو معتزلي) يجنح أن يأخذ مذهب الاعتزال من كتاب الله عز وجل، وأن يجعل كثيراً من الصحابة من المعتزلة. كما فعل ابن المرتضى[2] في كتابه (المنية والأمل) وقد مر أن بعض الصحابة الذين تجنبوا الحرب مع المتنازعين سموا بالمعتزلة من أصل اشتقاق كلمة الاعتزال، وهم غير الفرقة المعروفة بالمعتزلة. هذا وأحسن تقسيم لطبقات المعتزلة بحسب ما وصلوا إليه من المسائل العلمية والكلامية هم ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: وهم أوائل المعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بن باب ومكحول بن عبد الله. وقتادة بن دعامة السدوسي.

الطبقة الثانية: أواسط المعتزلة كأبي الهذيل العلاف[3] والنظام[4]. وعثمان ابن

---

(1) راجع كتاب تاريخ الفرق للدكتور محمود محمد زيادة ص 34 وما بعدها.

(2) هو محمد مهدي بن مرتضى النجفي من النجف في العراق وله كثير من الكتب توفي 1212هـ - 1870م قال (ابن المرتضى) ويحتجون على الاعتزال بقول الله عز وجل ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثم قسم ابن المرتضى طبقات المعتزلة بحسب تاريخهم إلى إثنتي عشرة طبقة. وقد أدرج فيهم الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة لعبد الله بن عباس وابن مسعود والحسن والحسين ومن التابعين محمد بن علي بن الحنفية وسعيد بن المسيب وطاووس اليماني وأبو الأسود الدؤلي وغيرهم. وواضح: أن إدراج هؤلاء ضمن المتعزلة إنما قصد به البيان بأن المعتزلة هي أتقى الفرق وأبرها: ولا غرابة إذا علم أن ابن المرتضى شيعي زيدي. وكان زيد بن علي زين العابدين تلميذاً لواصل بن عطاء رأس المعتزلة. راجع المنية والأمل ص (2) وراجع مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي ج1 ص40.

(3) أبو الهذيل العلاف: هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول من أئمة المعتزلة ولد في البصرة عام 135 وتوفي عام 235هـ 850م واشتهر بعلم الكلام قال المأمون: أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام. الأعلام ج7 ص 355.

(4) النظام: هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري أبو إسحاق من أئمة المعتزلة تبحر في الفلسفة. وانفرد بآراء خاصة وله فرقة تدعى النظامية توفي 231هـ الأعلام ج1 ص 36.

خالد الطويل. أستاذ أبي الهذيل العلاف وأبو اسحاق النظام.

الطبقة الثالثة: أواخر المعتزلة كأبي علي الجبائي وابنه هاشم الجبائي[1] وأحمد بن أبي داود وعمر بن بحر الجاحظ.

لقد امتازت المعتزلة من بين المتكلمين بحرية الرأي، والاعتماد على العقل، وعدم التقيد بنصوص القرآن والحديث بدقة، بل يؤولون كثيراً من النصوص المخالفة لما ذهبوا إليه من الآراء مما كان له الأثر العظيم في اختلافاتهم، فإنك لا تكاد تجد رأياً قد اتفقوا عليه بأجمعهم. ولهذا يعاني من يكتب عنهم مشاق عظيمة في أن يجعل لهم مذهباً واحداً مجمعاً عليه منهم، وكأن الجدل والخلاف في الرأي هو الأصل الذي قام عليه مذهب هذه الفرقة. حكى الإمام الأشعري رحمه الله رأيهم في الباري عز وجل فقال: (اختلفت المعتزلة في الباري عز وجل: هل يقال أنه لم يزل عالماً بالأجسام؟ وهل المعلومات معلومات قبل كونها؟ فأجاز ذلك قوم، ومنع قوم. ثم قال: واختلف الذين قالوا من المعتزلة: إن الله لم يزل عالماً، قادراً حياً، أ هو عالم قادر حي بنفسه أم بعلم وقدرة وحياة. وما معنى القول: عالم قادر حي؟ فقال أكثر المعتزلة: إن الله عالم قادر حي بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة، وأطلقوا أن لله علماً بمعنى أنه عالم، وله قدرة بمعنى أنه قادر.

وقال أبو الهذيل العلاف[2]: هو عالم بعلم هوهو. وقادر بقدرة هي هو. وهو حي بحياة هي هو. كذلك قال في سمعه وبصره، وقدمه، وعزته، وعظمته، وجلاله، وكبريائه وفي سائر صفاته. وكان يقول: لله وجه هو هو. ونفسه هي هو ويتأول ما ذكره الله سبحانه من اليد أنها النعمة. وقوله تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أي علمي.

وقال عباد[3]: هو عالم قادر حي لنفسه أو لذاته. وقولي عالم: إثبات اسم الله

---

(1) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام مولده بجبا، كورة من خراسان. توفي 303هـ وفيات الأعيان ج2 ص 277.

(2) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وقد مرت ترجمته.

(3) هو عباد بن سليمان المعتزلي توفي سنة 250هـ.

ومعه علم بمعلوم. وقولي قادر: إثبات اسم الله ومعه علم بمقدور. وقال ضرار[1]: معنى أن الله عالم: أي ليس بجاهل. ومعنى أنه قادر: أنه ليس بعاجز. ومعنى حي: ليس بميت.

وقال النظام[2]: معنى قولي (عالم): إثبات ذاته ونفي الجهل عنه. ومعنى قولي (قادر): إثبات ذاته ونفي العجز عنه. وكذلك سائر صفات الذات على هذا الترتيب.

فنجد من هذا اختلافاً واضحاً. ولكن الاختلاف الذي وقع بين المعتزلة يعد عندهم اختلافاً فرعياً وسبب ذلك أنهم أعتموا على العقل وأولوا النقل. وشجعهم على هذا أن هذه المسائل لم يرد فيها نص من قرآن أو حديث. أما المسائل التي ورد فيها نص قاطع من الكتاب أو السنة فلم يختلفوا فيها. ومن هذا المسائل المقطوع بها كوّنوا لهم أصولاً اتفقوا عليها. وتركوا الحرية لعقولهم فيما بعد هذا. وهاكم المبادئ المتفق عليها تقريباً.

المبادئ العامة للمعتزلة

ومهما يكن من أمر فإن للمعتزلة مبادئ يكادون يشتركون فيها جميعاً، ومبادئ خاصة ببعض رؤسائهم. فالمبادئ العامة خمسة أصول تقريباً. وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول أبو الحسن الخياط (أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث الهجري)[3]: أما جملة قول المعتزلة الذي يشمل على جماعتها فليس يمكنك عيبه ولا الطعن فيه ما كنت مظهراً لدين الإسلام؛ لأن الأمة بأسرها تصدق المعتزلة في أصولها التي تعتقدها وتدين بها. وهو أن الله واحد (ليس كمثله شيء) (لا تدركه الأبصار) ولا تحيط به الأقطار، وأنه لا يحول ولا يزول ولا يتغير ولا ينتقل وأنه (الأول والآخر والظاهر والباطن) وأنه (في السماء إله وفي الأرض إله) وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنه القديم وما سواه

---

(1) هو ضرار بن عمر المعتزلي عاش في القرن الثاني الهجري.

(2) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام توفي سنة 221هـ.

(3) كتاب الانتصار لأبي الحسن الخياط ص 5.

محدث، وأنه العدل في قضائه، الرحيم بخلقه، الناظر لعباده، وأنه لا يحب الفساد. ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يريد ظلماً للعالمين، وأن خير الخلق أطوعهم له، وأنه الصادق في أخباره، الموفي بوعده ووعيده، وأن الجنة دار المتقين، والنار دار الفاسقين. وهذه الأقاويل، الأمة مجمعة عليها، ومصدقة قول المعتزلة فيها. ويقول أبو الحسن أيضاً[1]: وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، العدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كملت في الإنسان هذه الصفات فهو معتزلي. أ. هـ. وإليك التفصيل:

1- **التوحيد**: مبدأ التوحيد من أهم مبادئ المعتزلة، وإن كان التوحيد يمتاز به المسلمون جميعاً، ولكن المعتزلة لهم فلسفتهم الخاصة بالتوحيد. فقالوا: إن الله سبحانه وحده ليس كمثله شيء، وليس بجسم ولا شبح، ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، وليس بمحدود ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فالله خلاف ذلك، لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار، عالم قادر لا كالعلماء القادرين وأنه القديم وحده، ولا قديم سواه، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له في سلطانه[2]. ونرى المعتزلة يؤولون كل آية في القرآن ظاهرها تشبيه الخالق بالمخلوق. فمن ذلك (مثلاً) قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[المائدة: 64] إن معنى قول اليهود يد الله مغلولة وصفه بالبخل، وقوله بل يداه مبسوطتان تعبير مجازي يدل على غاية السخاء ونفي البخل عنه، وقوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: 5] هو كناية عن الملك[3].

---

(1) الانتصار لأبي الحسن الخياط ص 126-127.

(2) راجع مقالات الإسلاميين ج1 ص 155.

(3) ومن قرأ الكشاف للزمخشري يجد فيه التأويل المعتزلي لأن الزمخشري معتزلي.

وفرعوا عن تنزيههم لله تعالى أن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة لاقتضاء ذلك الجسمية والله تعالى ليس بجسم. وأيدوا قولهم هذا بقول الله عز وجل ﴿ لا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ وقالوا في الأحاديث الدالة على الرؤية[1]: إنها آحاد لا توجب العلم. وقد أنكر عليهم أهل السنة إنكارهم للرؤية الثابتة في القرآن والسنة قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[2] وتأويل الآية لا تدركه الأبصار الرؤية غير الإدراك، فالإدراك بكيف وانحصار، والرؤية بلا كيف ولا انحصار.

وتفرع أيضاً على مذهبهم التوحيدي أن صفات الله تعالى عين ذاته حتى لا يثبتوا إلا قديماً واحداً فقالوا أنه تعالى عالم بذاته قادر بذاته إلخ[3].

2- **العدل**: من مبادئ المعتزلة الأساسية العدل: وهو الأصل الثاني[4] فهو أنه تعالى لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم، وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولم ينه إلاَّ عمَّا كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وإن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التي أعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم يفنيها إذا شاء، ولو شاء الله لجبر الخلق على طاعته، ومنعهم اضطرارياً عن معصيته، ولكان على ذلك قادراً غير أنه لا يفعل أ. هـ المسعودي.

وكان من أثر وصفهم الله سبحانه بالعدل مسائل كثيرة، أهمها: قولهم بأن العبد

---

(1) أحاديث الرؤية واردة في البخاري ومسلم وكتب السنن.

(2) الحديث في مسلم بطرق متعددة.

(3) راجع في ذلك مروج الذهب للمسعودي ج2 ص 174 طبعة كتاب التحرير. وراجع الفرق لأحمد مصباح ومحمود زيادة ص 22-23.

(4) المصدر السابق.

مختار في أفعاله، لكنه لا يفعل أفعاله إلاّ بالقدرة التي خلقها الله له.

وقد أراد المعتزلة بهذا تصحيح التكليف؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو كلف العبد ولم يعطه القدرة على إتيان ما كلف به لكان ظالماً. والظلم بل وإرادته على الله مستحيل. فكأن الإرادة أو الاختيار على مذهب المعتزلة ليس اختياراً مطلقاً، ولهذا يطلق عليهم (أهل التوحيد والعدل). مع أن الأشاعرة يذهبون برأيهم إلى غير ما يريدون، ويلزمونهم بلوازم يكفرونهم بها وهذه الالتزامات غير صحيحة. فهم أرادوا فقط تصحيح التكليف، وتقرير مبدأ المسؤولية، ولهذا جعلوا القدرة التي يفعل بها العبد مخلوقة لله، ولو شاء لسلبها منه، ولكنه لم يسلبها لأنه عدل، والعدل لا يكلف الناس فوق ما يطيقون. وهذه المشكلة: مشكلة التوفيق بين إرادة الإنسان ومسؤوليته من جهة، وقدرة الله القادر على كل شيء من جهة أخرى مشكلة قديمة، وجدت قبل الإسلام، وشغلت رجال الدين والفلاسفة في مختلف العصور. فنرى الأبيقوريين من فلاسفة اليونان يقولون: إن إرادة الإنسان حرة طليقة.

ونرى الرواقيين من فلاسفة اليونان أيضاً يقولون: إن إرادة الإنسان مجبورة على السير في طريق لا يمكن أن تتعداه.

ولما جاء الإسلام وجاء دور البحث واتصلوا بالثقافات اليونانية وغيرها أثاروا هذه المشكلة: (هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر):

فقال الجبرية[1]: إن الإنسان مجبور في أفعاله، وإنه لا اختيار له ولا قدرة وأنه كالريشة المعلقة في الهواء، إذا ثار تحركت وإذا سكن سكنت، وإن الله قدَّر عليه أعمالاً لا بد أن تصدر منه شاء أم أبى.

وقال القدرية[2]: إن الإنسان ليس مجبوراً بل هو مختار حر فيما يأتي ويذر من الأعمال، له أن يفعل هذا ويترك ذاك، لا سلطان لأحد على إرادته، ينتقل متى شاء، وينام ويستيقظ متى أراد، وإلاّ كان كالآلة أو كالجماد، وحينئذ لا يكون لتكليفه

---

(1) رئيس الجبرية جهم بن صفوان. ولنا عودة على الجبرية.

(2) القدرية ضد الجبرية ورئيسهم غيلان الدمشقي ومعبد الجهني. وسنتكلم عن القدرية إن شاء الله تعالى.

معنى، ولا لإثابته وعقابه وجه من الوجوه.

فوقف المعتزلة كما رأينا موقفاً وسطاً، بين الجبر المطلق والاختيار المطلق. وحار قوم بين هؤلاء وهؤلاء وأولئك، ومن هؤلاء أبو الحسن الأشعري ومن تبعه. فقال «بالكسب» وقد فسره بقوله: بأنه الاقتران العادي بين قدرة العبد والفعل. فالله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته، لا بقدرة العبد وإرادته، فقدرة العبد لا تؤثر في المقدور. وفي الحقيقة هذا هو الجبر بعينه والخلاف في التعبير فقط. وهناك من أهل السنة من قال: إن الله تعالى خلق للعبد قدرة وإرادة يصرف بهما الأمور باختياره، حتى تتحقق مسؤوليته، والله تعالى يسلب عنه قدرته متى شاء. فأعمال العبد تنسب إلى الله تعالى باعتباره خالق وواهب لقدرة الإنسان، وتنسب إلى الإنسان لكونه هو المكتسب بالقدرة والإرادة الموهوبة له من قبل الله تعالى.

وهذا في الحقيقة رجوع إلى مذهب المعتزلة. مع الخلاف في التعبير فقط.

ولقد ناقشت في هذا الموضوع بالذات أستاذي الدكتور محمد يوسف الشيخ[1] وقلت له (بعد أن قرر القول المتقدم): هذا رجوع إلى قول المعتزلة بتعبير جديد فأجاب لا يستقيم التكليف إلا على هدا التقرير.

والسبب في هذا الاختلاف بين المسلمين أن ظواهر الأدلة العقلية متباينة، وظواهر النصوص مختلفة، فالقرآن الكريم تارة يعبر عن الإنسان بأنه مسلوب الاختيار، ويعبر عنه تارة أخرى بما يفيد بأنه مختار. فنجد قول الله عز وجل في سورة الكهف ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: 29] فظاهر هذه الآية يدل على حرية إرادة الإنسان. ونجد قول الله عز وجل في سورة الدهر ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الدهر: 30] وظاهر هذه الآية يدل على أن الإنسان مجبور. فالقرآن إذن لم يصرح بأن الإنسان مسلوب الاختيار دائماً وإلا لسقط

(1) الدكتور محمد يوسف الشيخ مدرس في كلية أصول الدين لمادتي الفلسفة وعلم الكلام سابقاً وهو أستاذي جزاه الله الخير.

الجزاء، واستوى المحسن والمسيء. ولم يصرح بأن الإنسان له الاختيار المطلق وإلا لشارك في الخلق. ومجموع ما ورد من الآيات تدل على أن للإنسان اختياراً بمقدار ما يصحح مسؤوليته لا اختياراً مطلقاً يجعله يخرج عن حدود البشرية، ولا جبراً مطلقاً يسلب عنه المسؤولية. فالقرآن وقف عند هذا الحد وما وراء ذلك فهو دخيل على المسلمين من أرباب الديانات الأخرى[1] فالواقع المحسوس يكذب الجبر المطلق كما يكذب الاختيار المطلق.

3- **القول في الوعد والوعيد** : الأصل الثالث من أصول المعتزلة المجمع عليها تقريباً منهم هو: القول بالوعد والوعيد. فالثواب للمطيع، والعقاب للعاصي لازم لمبدأ العدل عند المعتزلة. فلا بد أن يلقى كل جزاءه إن محسناً وإن مسيئاً، وذلك ما يسمونه بالوعد والوعيد، فالله سبحانه لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة. وإنه لصادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته[2].

4 - **المنزلة بين المنزلتين** : هو الأصل الرابع للمعتزلة[3]. إن المعتزلة يقسمون المعاصي إلى صغائر وكبائر. وأشهر أقوالهم في الكبائر: هي ما أتى فيها وعيد. والصغائر ما لم يأت فيها وعيد. وبعض الكبائر تؤدي إلى الكفر، كتشبيه الله بخلقه، ونسبة الجور إليه في حكمه، وبعضها لا يبلغ درجة الكفر، فيسمى مرتكبها فاسقاً. والفسق منزلة بين المنزلتين؛ أي بين الكفر والإيمان ولا مانع عندهم من إطلاق اسم المؤمن على الفاسق تمييزاً له عن الكافرين، لا تكريماً له ولا مدحاً. وصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه لأنه أوعد بالعقاب عن الكبائر فإن لم يعاقبه لزم الخلف في وعيده. ولأن الطاعات والأمر بها، والمعاصي والنهي عنها وضعت لحكم، فمن لم يطع فقد أخل بالحكم فاستحق العقاب والتخليد في النار بدليل قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 81] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡصِ

(1) راجع هذا الموضوع في كتاب الفرق للدكتور أحمد مصباح ص 34 وفي الفرق بين الفرق ص 96 لعبد القاهر البغدادي وفي الفرق الإسلامية للدكتور علي مصطفى الغرابي ص 31-32.

(2) راجع مروج الذهب لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي المتوفي 346هـ ج2 ص 174 طبعة كتاب التحرير.

(3) راجع في هذا الأصل مروج الذهب كما مر. والفرق للدكتور أحمد مصباح ص 24.

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: 14].

ومخالفوهم يرون أن ثواب الله فضل وعد الله به، وخلف الوعد نقص والنقص على الله تعالى مستحيل، وليس في خلف الوعيد نقص، ومرتكبو الكبائر من المؤمنين لا يخلدون في النار لأن عندهم الإيمان وهو من أعظم الخير. والله تعالى يقول ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: 7-8] فأي خير ناله المؤمن العاصي إذا لم يخرج من النار ويدخل الجنة.

5- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: هو مبدأ من أخطر المبادئ عند المعتزلة، سيطر على تاريخهم، وأثر في حياة فرقهم تأثيراً كبيراً. ذلك لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة كما عند الخوارج ليس بالقلب فقط، ولكنه بالقلب واللسان أو اليد حيناً. وبالسيف حيناً، ولا بد من السيف لتقويم المعوج حينما لا تفلح الوسائل الأخرى[1].

ولا يوجد في الفرق الإسلامية من يستعمل السيف للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير الخوارج والمعتزلة، والحكمة في هذا نشر دعوة الإسلام، وهداية الظالمين، وإرشاد الغاوين، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق[2].

من مبادئ المعتزلة الإضافية

من المبادئ التي لم يتفق عليها جميع المعتزلة بل قال فيها بعضهم نجملها فيما يلي:

1 - **الحسن والقبح العقليين**: كما سيأتي:

2 - **القول بأن اللّه تعالى قديم**: والقدم أخص صفاته. ونفى المعتزلة الصفات القديمة أصلاً. فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة قديمة ومعان قائمة؛ لأنه لو شاركته الصفات في القدم -الذي هو أخص الوصف- لشاركته في الألوهية.

3 - **كلام اللّه محدث**: كاد المعتزلة يتفقون على أن كلام الله تعالى محدث مخلوق

---

(1) مقالات الإسلاميين للأشعري ج1 ص 270.

(2) المسعودي ج2 ص 190.

في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه.

4 - **الاختلاف في الإمامة**: اختلفوا في الإمامة والقول فيها وغير ذلك[1].

رأي المعتزلة في الإمامة

من أعظم الأمور التي اختلفت فيها الأمة الإسلامية (هي الإمامة) كما قدمنا. فكانت المعتزلة وأكثر الطوائف الإسلامية تذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة. وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ولم يصح النص عن رسوله أيضاً، ولا أجمع المسلمون على رجل بعينه، وإن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة، تختار رجلاً منها ينفذ أحكام الله. ثم اختلفت بعض هذه الفرق، فقالت جماعة: إن الإمامة تجوز في قريش وغيرهم من الناس وهم جميع المعتزلة، وجماعة من الزيدية[2] مثل الحسن بن صالح بن يحيى ومن قاله بقوله. ويوافق على هذا القول جميع الخوارج[3] وقد استدل هؤلاء بقول عمر ﷺ لما طعن: (لو أن سالماً حي ما دخلتني فيه الظنون) وسالم مولى امرأة من الأنصار. واستدلوا بما صح عن النبي ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[4] وقد قال الله عز وجل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وذهب أبو حنيفة رحمه الله وأكثر المرجئة[5] وأكثر الزيدية، وسائر فرق الشيعة والرافضة إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش فقط لقول النبي ﷺ: (الأئمة في قريش) وقوله عليه الصلاة والسلام: «قدِّموا قريشاً ولا تقدموها»[6].

---

(1) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج1 ص 55 وراجع مذاهب الإسلاميين ج1 ص 47 وما بعدها.

(2) تقدم أنهم جماعة زيد بن علي زين العابدين.

(3) قالت فرقة النجدات من الخوارج: إن عدلت الأمة فلا حاجة لإمام.

(4) الحديث رواه البخاري في الأحكام عن أنس مرفوعاً.

(5) هم الذين أرجأوا الحكم إلى الله تعالى.

(6) الحديث رواه الطبراني وأبو نعيم والديلمي عن أنس. راجع هذا البحث في مروج الذهب للمسعودي ج2 ص 175-176.

الحكم على المعتزلة

خلاصة الرأي في المعتزلة :

بعد ما تقدم من المبادئ الأساسية التي أجمع عليها المعتزلة تقريباً، إذا ما نظرنا إليها نظرة إنصاف وتقدير وجدنا فيها عقيدة صحيحة لا تخالف ما أجمع عليه المسلمون، وأنهم استدلوا على عقيدتهم من القرآن الكريم، فمن يكذب من المسلمين أن الله سبحانه واحد، وأنه ليس كمثله شيء، ومن لا يصدق أن الله سبحانه ﴿لا تدركه الأبصار﴾ والمدقق بأقوال المعتزلة يظهر له أنهم لا يريدون من الآية نفي رؤية الله تعالى بالأبصار؛ وإنما يريدون منها ما يدل عليه ظاهرها، وهو أن الله لا تحيط به الأبصار، ولا تأتي على كنهه، ويظهر أن هذا هو المقصود من الآية الكريمة بدليل قوله تعالى ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فليس المراد هنا بإدراك الأبصار هو رؤيتها، إذ المراد هو الاستدلال على قدرة الخالق وعجز المخلوق. لهذا هو يدرك الأبصار ويعرف كنهها وحقيقتها لأنه خالقها. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. أما الله سبحانه مغير مدرك من خلقه إدراك إحاطة وشمول. ولكن الأشاعرة يحملون كلام المعتزلة على نفي الرؤية التي وردت في الحديث الصحيح، وظاهر نص القرآن الكريم. ثم من ينكر من المسلمين أن الله سبحانه وتعالى عدل في قضائه، وأنه سيجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته والله تعالى يقول ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21]. ولو لم يعتقد الناس هذا ويعملوا بمقتضاه لبطلت الشرائع وذهبت حكمة التكاليف؛ حيث يسوى بين المحسن والمسيء والمطيع والعاصي، والبار والفاجر والصالح والطالح. إذن ما أجمع عليه المعتزلة، الذي ورد على لسان عالمين جليلين من علمائهم وهما أبو الحسين الخياط[1] وابن المرتضى[2] لا يخالف ما أجمع عليه المسلمون.

---

(1) كتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط ص5.

(2) المنية والأمل لابن المرتضى ص6.

وأنه عقيدة صحيحة مصدرها القرآن.

وأما المسائل الأخرى التي لا نصّ عليها في القرآن، والتي كفرهم بها مخالفوهم. فإن مصدرها هو أن تفكيرهم العقلي فيها غير مقيّد بنص من كتاب ولا سنّة، حيث لم يرد فيهما نصّ قطعي يخالف ما ذهبوا إليه، وهذا سر كثرة آرائهم في هذه المسائل؛ لأن كل واحد منهم كان يعتمد على عقله فيها. وإذا كان خلافهم على مسائل غير قطعية، ولم تعرف من الدين بالضرورة، فلا يصحّ الحكم عليها بتكفير أو تفسيق كما يعبر عنه كتّاب الفرق من الأشاعرة كالأسفراييني والبغدادي والشهرستاني[1].

الحسن والقبح العقليين

من مبادئ المعتزلة: الحسن والقبح العقليين:

لا خلاف بين علماء المسلمين في أن مصدر الأحكام الشرعية لجميع أفعال المكلفين هو الله سبحانه، سواء أَظْهَرَ حكمه مباشرة من النصوص التي أوحى بها الله تعالى إلى رسوله أو ما نصّ عليها الرسول الذي لا ينطق عن الهوى[2] أو اهتدى المجتهدون إلى الحكم بواسطة الدلائل والإمارات التي شرّعها لاستنباط أحكامه. ولهذا اتّفقت كلمتهم على تعريف الحكم الشرعي بأنه: (خطاب الله تعالى المتعلّق بأفعال المكلّفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً). واشتهر من أصولهم (لا حكم إلا لله)[3] وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57].

أهداف المعتزلة في أصولهم

من أهداف المعتزلة في أصولهم الخمس: هو أنه لما دخل في الإسلام كثير من شتى

---

(1) راجع هذا البحث في كتاب الفرق الإسلامية لأستاذي الدكتور محمد مصطفى الغرابي ص 54 وما بعدها.

(2) أي سواء كان الوحي متلوّاً ومتواتراً وهو القرآن أو غير متلوّ وهو الحديث.

(3) هذه الكلمة نطق بها الخوارج في وجه علي كما مر وأجابهم (كلمة حق أريد بها باطل) وأول من نطق بكلمة (لا حكم إلا لله) البرك الذي حاول قتل معاوية.

الأجناس والديانات، فمنهم الروم والفرس، ومنهم اليهود والنصارى، والمجوس والدهرية، ولم يكونوا جميعاً مخلصين في قبول الإسلام، إذ أن بعضهم اتخذوا الإسلام ستاراً لأغراضهم السياسية والدينية، وجعلوا يعملون على إعادة سلطانهم المسلوب، أو إحياء تعاليم دينهم المطموس بإدخالها في عقائد المسلمين، وإثارة الشبه والشك ليهدموا أركان الإسلام، فقيض الله فرقة ردت كيدهم في نحورهم، ووقفت لهم بالمرصاد، وكان عماد حججها على العقل والنقل، تلك هي فرقة المعتزلة، وقد تولدت من نقاشها لأعداء الإسلام تلك الأصول الخمسة، التي ذكرناها آنفاً، فالتوحيد كما بيناه كان رداً على ما ذهب إليه قوم من تجسيد الله، وإثبات صفات كصفات المخلوقين لله تعالى، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان الذي عاصر واصل بن عطاء، وقال المعتزلة بالعدل رداً على الجهمية ومن قال بوقوع الظلم من الله تعالى من الرافضة، وقد ورد أن واصل بن عطاء أرسل بعض أصحابه إلى خراسان لمباحثة جهم ومجادلته، أما الوعد والوعيد فكان للرد على المرجئة.

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فالذي دعا إليه: هي الحروب السياسية التي حدثت من مقتل عثمان وواقعة الجمل، وواقعة صفين جعلت الناس يتساءلون: مَن المحق ومن المبطل؟ ثم انتقلوا من ذلك إلى القول بأن المخطئ هل هو كافر أم مؤمن؟ فكانت الخوارج تقول بكفر مرتكبي الكبائر، والمرجئة يقولون بأنه مؤمن، والحسن البصري يقول: إنه منافق، فقال واصل: إنه فاسق، وله منزلة بين الكفر والإيمان، فكان هذا المبدأ للرد على الخوارج والمرجئة والحسن البصري، يقول الدكتور (نيبرج) في مقدمته لكتاب الانتصار ص (51): إن المنزلة بين المنزلتين هي النقطة المبدئية في نشأة هذا المذهب إذ كانت مسألة المجرمين من الأمة مسألة حيوية اجتماعية وشخصية لم يزل بحر المناظرات والمجادلات فيها زاخراً في ذلك الزمان لأسباب شتى والخلاف مشهور. أ. هـ. فتبين من ذلك أن كلام واصل إنما وضع لإصلاح ذات البين، والمصالحة بين الخصمين، ويظهر أن رأيه في هذا الباب قريب جداً من رأي الخوارج كما هو قريب من رأي الحسن، وهو بعيد عن رأي المرجئة.

ومن أصول المعتزلة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وليس ذلك بالتي هي أحسن

فقط، بل بالشدة والغلظة إذا لزم الأمر، والذي دعاهم إلى هذا ما رأوه من سكوت الناس عن الحق ونصرته، فرأوا استخدام اليد والسيف لتأييد الحق وإزالة المنكر.

وإنما اختلف علاء المسلمين في أن أحكام الله في أفعال المكلفين، هل يمكن للعقل أن يعرفها بنفسها، من غير وساطة رسل الله وكتبه؟ أم لابد من النص.

معلوم أن الله عز وجل يأمر بكل خير ومصلحة للبشر دنيوية أو أخروية وينهى عن كل مفسدة دينية أو دنيوية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: 90] أو قل إن شئت إن الله يأمر بكل حسن وينهى عن كل قبيح، ويأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مساوئ الأخلاق.

1- **فالمعتزلة يقولون**: يمكن أن يعرف المكلف حكم الله في التكليف بنفسه من غير وساطة رسله وكتبه، لأن كل فعل من أفعال المكلفين فيه صفات وله آثار تجعله ضاراً أو نافعاً فيستطيع العقل بناء على صفات الفعل وما يترتب عليه من نفع أو ضرر أن يحكم بأنه حسن أو قبيح، وحكم الله سبحانه على الأفعال هو على حسب ما تدركه العقول من نفعها أو ضررها، فهو سبحانه يطالب المكلفين بفعل ما فيه نفعهم حسب إدراك عقولهم، وبترك ما فيه ضررهم حسب إدراك عقولهم، فما رآه العقل حسناً فهو مطلوب لله ويثاب من الله فاعله، وما رآه العقل قبيحاً مطلوب من الله تركه، ويعاقب المكلف على فعله.

وأساس هذا المذهب أن الحسن من الأفعال ما رآه العقل حسناً لما فيه من نفع، والقبيح من الأفعال ما رآه العقل قبيحاً لما فيه من ضرر، وإن أحكام الله في أفعال المكلفين هي على وفق ما تدركه عقولهم فيها من حسن أو قبيح.

ومذهب المعتزلة يتفق وما ذهب إليه أكثر علماء الأخلاق: من أن مقياس الخير والشر هو ما يدرك في العقل من نفع أو ضرر لأكبر مجموعة من الناس يصل إليهم أثر الفعل.

2- **مذهب الأشاعرة في الحسن والقبح**: وهم أتباع أبي الحسن الأشعري، قالوا:

لا يمكن للعقل أن يعرف حكم الله في أفعال المكلفين إلا بواسطة رسله وكتبه، لأن العقول تختلف اختلافاً بيناً في الأفعال، فبعض العقول يستحسن بعض الأفعال، وبعضها يستقبحها، بل عقل الشخص الواحد يختلف في الفعل الواحد وكثيراً ما يغلب الهوى على العقل، فيكون التحسين أو التقبيح بناء على الهوى، فعلى هذا لا يمكن أن يقال: ما رآه العقل حسناً فهو حسن عند الله، ومطلوب لله فعله ويثاب عليه من الله فاعله، وما رآه العقل قبيحاً فهو قبيح عند الله، ومطلوب لله تركه، ويعاقب من الله فاعله[1].

وأساس هذا المذهب أن الحسن من أفعال المكلفين ما دل الشارع على أنه حسن بإباحته أو طلب فعله، والقبيح ما دل الشارع على أنه قبيح بطلبه تركه.

فقياس الحسن والقبح على رأي الأشاعرة هو الشرع فقط لا العقل.

3 - مذهب الماتردية: في الحسن والقبح.

هم أتباع أبي منصور الماتريدي: وهذا المذهب وسط معتدل بين الأشاعرة والمعتزلة، وهو الراجح عندي، وخلاصته أن أفعال المكلفين فيها خواص ولها آثار تقتضي حسنها أو قبحها، وأن العقل السليم بناء على هذه الخواص يستطيع الحكم بأن هذا الفعل حسن وأن هذا الفعل قبيح، فما رآه العقل السليم قبيحاً فهو قبيح، ولكن لا يلزم أن تكون أحكام الله في أفعال المكلفين على وفق ما تدركه عقولنا فيها من حسن أو قبح، لأن العقول مهما نضجت قد تخطئ.

ولأن بعض الأفعال تختلف فيه العقول السليمة، فلا تلازم بين أحكام الله وما تدركه العقول، وعلى هذا لا سبيل إلى معرفة حكم الله إلا بواسطة رسله.

فالحسن حسن في ذاته كشف عن حسنه النص، والقبيح قبيح في ذاته كشف عن قبحه النص، فهؤلاء وافقوا المعتزلة في أن حسن الأفعال وقبحها مما تدركه العقول، بناء على ما تدركه من نفعها أو ضررها، وخالفوهم في أن حكم الله لابد أن يكون على وفق حكم العقل، وفي أن ما أدرك العقل حسنه فهو مطلوب لله فعله، وما أدرك

---

(1) راجع هذا البحث في كتاب علم الأصول لعبد الوهاب خلاف ص96.

العقل قبحه فهو مطلوب لله تركه، ووافقوا الأشاعرة في أنه لا يعرف حكم الله إلا بواسطة رسله وكتبه وخالفوهم في أن الحسن والقبح للأفعال شرعيان لا عقليان، وفي أن الحكم لا يكون حسناً إلا بطلب الله فعله، ولا يكون قبيحاً إلا بطلب الله تركه، لأن هذا ظاهر البطلان، فإن أمهات الفضائل يدرك العقل حسنها لما فيها من نفع، وأمهات الرذائل يدرك العقل قبحها لما فيها من ضرر ولو لم يرد بهذا شرع[1].

أسباب كراهية السلف للمعتزلة

كان المعتزلة في أول أمرهم يقدرهم كثير من المفكرين، ويحترمهم كثير من المنصفين، وكان بعض الفقهاء والمحدثين يرون فيهم المدافع عن العقيدة.

فلما حدثت فتنة خلق القرآن شن الفقهاء والمحدثون الغارة عليهم، فأصبحوا بين عدوين كلاهما يريد البطش بهم، الروافض والثانوية والزنادقة والملاحدة من جهة والفقهاء والمحدثون من جهة أخرى.

وإذا سمعنا الشافعي وابن حنبل، وبعض الفقهاء يذمون علم الكلام ومن يأخذ العلم والمعرفة عن طريق المتكلمين، نعلم أنهم أرادوا بذلك المعتزلة، وقد سمى الغزالي في إحيائه، في المنقذ من الضلال "علم التوحيد" بعلم الجدل، يقصد بذلك جدل المعتزلة.

ولكن ما هو السر في كراهية الفقهاء لهم، وكلا الفريقين يسعى إلى نصرة الدين ولا يألو جهداً في تأييده، ولا يدخر وسعاً في إقامته؟ يبدو لنا أن عدة أمور تضافرت، فأوجدت ذلك العداء، وتعاونت فسببت البغضاء، منها:

1- تحويلهم العقيدة الإسلامية إلى مبادئ فلسفية عميقة، فقد كان القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يلجأ إليه كل من يتعرف على صفات الله، وما يجب الإيمان به من العقائد، لا يصدرون عن غيره، ولا يطمئنون لسواه، يفهمون العقائد من آيات الله، وهي بينات، وما اشتبه عليهم منها حاولوا فهمه من أساليب اللغة

---

(1) راجع كتاب الأصول لعبد الوهاب خلاف ص99 وكتابنا الأحكام والنسخ ص78-79.

العربية، وما عجزوا عنه فوضوا علمه إلى الله ولكن المعتزلة خالفوا هذا المنهج، وحكَّموا العقل في كل شيء، وجعلوه أساس بحثهم، فكان ذلك غريباً على الفقهاء، فجردوا عليهم سيوفهم، وأشاعوا عنهم قالة السوء، وما هم إلا مجتهدون، لمن أصاب منهم أجران، ولمن أخطأ أجر واحد، قال أحد العلماء الأوروبيين: إننا لم نسمع من المعتزلة صوت المخالفة للدين ولكننا سمعنا صوت الضمير المتدين الذي يناضل ضد ما لا يليق بالله تعالى.

2- كانت طريقة المعتزلة في معرفة العقائد عقلية خالصة، لا يعتمدون على نص إلا إذا كانت صلته بحكم شرعي، وللعقل هفوات، لذلك وقعوا في كثير من الأخطاء دفعتهم إليها نزعتهم العقلية الخالصة، كقول أبي الهذيل وهو من أئمتهم إن أهل الجنة غير مختارين لأنهم لو كانوا مختارين لكانوا مكلفين.

والآخرة دار جزاء لا دار تكليف، مع أنهم يحكمون على أهل الدنيا، بمنتهى الاختيار ليتم التكليف.

3- إنزالهم الصحابة ﷺ منزلة سائر الناس حيث تجرؤوا عليهم يشرحون أعمالهم فيحكمون على بعضها بالصواب وعلى بعضها بالخطأ، ويتناولون المخطئ (على رأيهم) بألسنة حداد، فقد تناول عمرو بن عبيد أبا هريرة وطعن في روايته، وجاء بعده النظام من أئمتهم فنقد أبا بكر وابن مسعود وحذيفة، والصحابة جميعاً محل التقدير والتقديس عند جميع أهل السنة.

4- حاول المعتزلة فرض آرائهم على سائر الناس بمساعدة بعض الخلفاء كما سيأتي في محنة القرآن.

5- وأخيراً اندس كثير من أهل الأهواء في صفوف المعتزلة فشوهوا سمعتهم.

هذا ولما قويت سلطة الفقهاء والمحدثين وخصوصاً الحنابلة، كالوا للمعتزلة الصاع صاعين فأدى ذلك إلى المهاترات، مع أنه كان وجود المعتزلة لابد منه للوقوف أمام تيار الملحدين.

وأخيراً: إن المعتزلة لما قالوا: العبد يخلق أفعال نفسه لم يريدوا بها الشرك كما

ألزمهم خصومهم؛ وهم الموحدون وأبعد الناس عن الشرك بل أرادوا المعنى اللغوي على حد قوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [1] وقد جعلوا القدرة التي يفعل بها العبد مخلوقة لله ومملوكة له، يسلبها متى شاء، وهذا قول لا غبار عليه، وهل إذا أعطى الله الشمس القدرة على الإضاءة، والماء قوة الإرواء، والأرض الصلاحية للإنبات يقال إنها شريكة لله في أداء ما تؤديه من الإضاءة والإرواء والإنبات؟ فالجواب: لا؛ وذلك أن الله خلقها لتكون هكذا، ولو شاء الله لسلبها ما أعطاها، فكذلك الإنسان خلقه الله وأعطاه قدرة محدودة وفي حدود هذه القدرة كلفه، إذاً هو عدل وهو حكيم.

وتصحيحاً للتكاليف أيضاً: أجمع المعتزلة على أنه لابد من الجزاء وهذا تحقيق لمبدأ الوعد والوعيد عندهم، ولابد أن يلاقي المحسن ثواب إحسانه والمسيء جزاء إساءته، وإن تكليف الله سبحانه لعباده لم يكن لأجل نفع يعود عليه، ولا لدفع ضرر عنه، وإنما هو لأجل منفعة العباد وإثابتهم على ما كلفهم به، وهذا معنى قولهم: (كلف تعويضاً للثواب) ولما كان التكليف لنفعهم وإثابتهم على القيام به أعطاهم الأسباب التي تساعدهم على الإتيان بما كلفهم به، وأزال عنهم العلل التي تمنعهم من تحقيقه، وهذا معنى قولهم (ومكن من الفعل وأزاح العلل).

ولما كان الله سبحانه رحيماً بعباده رؤوفاً بهم ومحباً لخيرهم أرسل لهم رسلاً ليبينوا لهم طريق الخير والشر، ولما كان إرسال الرسل لهذا حسناً، والله لا يفعل إلا الحسن: أوجبوا بعثة الرسل، وليس معنى هذا أن موجباً أوجب هذا على الله، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه، تحقيقاً لوصف الخير الذي لا يتخلف عنه[2].

هذا ولقد عول المعتزلة على العمل كثيراً، والعمل عندهم له شأن كبير، لأنه لا

---

(1) [آل عمران: 49] فالخلق هو التقدير والتصوير والعمل.

(2) راجع هذا الموضوع في كتاب الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين للدكتور علي مصطفى الغرابي ص 61-62.

قيمة للتكاليف إذا لم يقم بها من كلفوا بأدائها، لهذا جعلوا الإيمان (قول ومعرفة وعمل) فالقول لابد منه حتى يكون كالبيان والإظهار لما في القلب، ولا يمكن أن نميز بين المؤمن وغيره إلا بالنطق باللسان.

والمعرفة عندهم جزء من الإيمان، فلا يصح التقليد فيه، وإن جعلهم المعرفة جزءاً من الإيمان كان له أثر كبير في اهتمامهم بالأبحاث العقلية، فبحثوا وجادلوا للوصول إلى درجة من المعرفة تصح أن تكون معتقداً وتحقق أحد أركان الإيمان.

ولا يقل العمل عند المعتزلة في تحقيق الإيمان عن القول والمعرفة، إلا أن ترك العمل لا يجعل الشخص كافراً مطلقاً لأنه متصف بالقول والمعرفة اللذين هما جزءا الإيمان، كما أنه ليس مؤمناً مطلقاً لأنه لم يحقق جزء الإيمان الثالث وهو العمل، فهو منزلة بين المنزلتين.

وما أحرى المسلمين في هذا الزمن الذي تركوا فيه العمل بدينهم أن يعتنقوا هذا المبدأ، فإن سواد المسلمين جعلوا العمل بواجبات الدين وراءهم ظهرياً وعنهم جانباً، ليت شعري: ما معنى الإيمان بالله عز وجل وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله ثم لا أعمل بما جاء به فالكثير من ترك الصلاة والصيام ومنع الزكاة ويدعي الإسلام الحق.

فالإيمان بمحمد ورسالته يستلزم العمل بما أوجبه علي من تكاليف، وإلاَّ أصبح الإيمان جسماً بلا روح، وتقلص إلى نطق باللسان، خال من الحياة، وتهذيب النفس، ولا يكون له تأثير على الروح، والبعد عن الشر وتنمية الخير.

وما جاءت الشرائع إلاَّ لهذا، وما كانت الرسالات إلا لإصلاح الفاسد من الإنسانية، ولا يكون هذا إلاَّ بالعمل.

المرجئة [1]

ظهرت فرقة المرجئة بين الخوارج والشيعة والمعتزلة.

نشأتها:

في آخر عهد عثمان ﷺ ظهرت الفتنة التي راح ضحيتها سيدنا عثمان وجرَّت على المسلمين الويلات، وضرب بعض المسلمين رقاب بعض.

ففريق انحاز إلى علي ﷺ وفريق انحاز إلى معاوية[2] وهنالك وقف بعض الصحابة ﷺ على الحياد، وابتعدوا بأنفسهم عن هذا النزاع، ومن أشهر هؤلاء سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وعمران بن الحصين وحسان بن ثابت، وأبو بكرة، وتمسكوا بحديث رواه أبو بكرة: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الساعي، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال رجل: يا رسول الله: من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة)[3].

فهذا الفريق امتنع عن الخوض في الحروب التي وقعت بين الطائفتين كما مر ولم يشغلوا أنفسهم بالبحث عن الحق فأرجأوا الحكم إلى علام الغيوب[4].

---

(1) قال في القاموس: أرجأ الأمر أخره وترك الهمزة لغة قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 106] أي مؤخرون حتى ينزل الله فيهم ما يريد ومنه سميت المرجئة لتقديمهم القول وإرجائهم العمل.

(2) كان ذلك بعد وقعة الجمل.

(3) روى بعض هذا الحديث الإمام أحمد وبعضه في البخاري ومسلم.

(4) ورد عن ابن عمر رضي الله عنه: ولقد تركت الحرب مع علي فندمت على ذلك.

ومضى الزمن، والأحزاب السياسية تتكون وتركز أفكارها وتعاليمها.

فأعلن الشيعة تعصبهم الشديد لآل البيت وغلا البعض في ذلك حتى كفروا جلَّ الصحابة وفرضوا بينهم من العداوة ما لا يتصور إلا في أخيلتهم الفاسدة.

وأعلن الخوارج نحلة جديدة لم يكن للمسلمين بها علم من قبل، وهي تكفير كل مذنب، وكل من الشيعة والخوارج يكفر الأمويين ويلعنهم، والأمويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطلون.

وفي وسط هذا الاضطراب الفكري ظهرت المرجئة كفرقة لها آراؤها وأفكارها فكان ظهورها كأثر عكسي لآراء كل من الخوارج والشيعة فقالوا: إن الفرق الثلاث: الشيعة والخوارج والأمويين مؤمنون، وبعضهم مخطئ وبعضهم مصيب ولسنا نستطيع أن نعينَّ المصيب، فلنترك أمرهم جميعاً إلى الله تعالى.

الإيمان والكفر عند المرجئة

تبين لنا أن فرقة المرجئة نشأت كرد فعل لمغالات كل من الخوارج والشيعة في عقائدهم، فالخوارج يكفرون من عداهم، والشيعة تعد الاعتقاد بالإمام ركناً أساسياً من أركان الإيمان، فكان طبيعياً أن يعرض المرجئة على بساط البحث هذا السؤال (ما هو الكفر، وما هو الإيمان؟).

فرأي بعض المرجئة، أن الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط.

وهذا رد على الخوارج الذين يقولون: (إن الإيمان معرفة بالله وبرسله والإتيان بالفرائض والكف عن الكبائر) كما هو رد على الشيعة الذين يعتقدون أن معرفة الإمام وطاعته جزء من الإيمان.

ومن المرجئة من غلا وتطرف، فزعم أن الإيمان عند المؤمن الاعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، ولزم اليهودية أو النصرانية، في دار الإسلام،

وعبد الصليب، وأعلن التثليث، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، وهو ولي الله عز وجل ومن أهل الجنة[1] ومن أقوالهم المشهورة، (لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة).

وقال مقاتل بن سليمان[2]: إن المعصية لا تضر صاحب التوحيد والإيمان، وأنه لا يدخل النار مؤمن، ولعمري هذا تدهور في العقيدة، وقد يكون في النقل عن مقاتل تصحيف وقوله (لا يخلد في النار مؤمن).

ومن المرجئة من كان يرى أن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان فالتصديق بالقلب وحده لا يكفي، والإقرار باللسان وحده لا يكفي، بل لابد منهما معاً.

وعلى كل حال فالمرجئة يكادون يجمعون على أن العمل ليس ركناً من أركان الإيمان، ولا داخلاً في مفهومه، وحجتهم أن القرآن نزل بلغة العرب والإيمان في اللغة هو التصديق فقط، وأما العمل بالجوارح فلا يسمى تصديقاً.

وقد جاء في القرآن الكريم حكاية عن أخوة يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أي بمصدق ما حدثناك به، وفي الحديث الوارد في صحيح مسلم (حديث جبريل) «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» أي تصدق بهؤلاء.

ولكن خصومهم يرون أن أركان الإيمان ثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، وعمل الطاعات، نعم إن الإيمان في اللغة هو التصديق بالقلب إلاَّ أن الشارع كثيراً ما يغير المعاني اللغوية ويزيد فيها ويقيدها، كالصلاة مثلاً: كانت في اللغة الدعاء فاستعملها الشارع في الأقوال والأفعال المخصوصة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: 143] وسياق الآية هنا يدل على أن المراد بالإيمان الصلاة

---

(1) الفصل في الملل والنحل لابن حزم 2ص111، 112، ج4 ص204.

(2) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي من أعلام المفسرين متروك الحديث توفي 150 هـ.

إلى بيت المقدس قبل أن ينسخ بالصلاة إلى الكعبة، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5] فنص على أن عبادة الله دين، ويستدلون أيضاً على رأيهم بأن الإيمان لو كان هو التصديق بالقلب فقط لكان كثير من اليهود مؤمنين فقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: 146][1] مع أنه لا خلاف بين المسلمين في عد هؤلاء كفاراً.

وينتج عما تقدم أن الإيمان عند المرجئة لا يزيد ولا ينقص، قال الشهرستاني[2]، وقال غير المرجئة: إن الأعمال داخلة في مفهوم الإيمان والأعمال تزيد وتنقص، فالإيمان يزيد وينقص، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [التوبة: 124] وقد تأول المرجئة هذه الآية وأمثالها بأنها لما نزلت زادتهم تصديقاً بشيء لم يكن عندهم من قبل، وينتج أيضاً على قول المرجئة أن المؤمن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار، ولهذا خالفوا المعتزلة والخوارج الذين يقولون بتخليده في النار، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: 14] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: 93]، وقد تأول المرجئة هذه الآيات؛ فالأولى أن المؤمن العاصي لم يتعد جميع حدود الله بل تعدى بعضها، والآية الثانية بأن من قتل مؤمناً لأنه مؤمن ولا يكون ذلك إلا من كافر.

وخلاصة القول في الإرجاء: المعتدل منه لا يبعد كثيراً عن رأي جمهور أهل

---

(1) راجع في هذا البحث الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج3 ص187 وتاريخ الفرق للدكتور محمود محمد زيادة ص3 وما بعدها.

(2) الملل النحل ج1 ص263.

السنة فقد قال أبو حنيفة وأصحابه ومن تابعهم بأن الإيمان هو التصديق وهو لا يزيد ولا ينقص، وصاحب الكبيرة لا يخلد في النار بل يعذب بمقدار.

وقد يعفو الله عنه، وقد قال إلى هذا الرأي الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب وسعيد بن جبير وطارق بن حبيب ومقاتل بن سليمان، وحماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة وكثير من أئمة الحديث، ولكن هؤلاء تبرؤوا من قول المرجئة: لا تضر مع الإيمان معصية، وكل ما في الأمر تغليب جانب الاعتقاد على العمل.

obeikandl.com

مَذهب الجَبر[1]

كما ظهر في عصر بني أمية مذهب الجبر، ويظهر أن القول به كان أيضاً سياسياً، ليبرر القائلون به سائر أعمال الناس في الفتنة وغيرها.

أساس مذهب الجبر يرتكز على رجلين. الأول: (جعد بن درهم) صاحب المذهب والثاني (جهم بن صفوان) ناشر المذهب . .

أولاً: (جَهم بن صفوان)[2] الناشر كان يقول: إن الإنسان مجبور في أفعاله، وإنه لا اختيار له ولا قدرة، وأنه كالريشة المعلقة في الهواء، إذا تحرك تحركت وإذا سكن سكنت[3] وإن الله سبحانه قدر عليه أعمالاً لابد أن تصدر منه، وجادل جهم في مذهبه (مقاتل)[4] المفسر، كما جادل (السمنية)[5] في إثبات الإله سبحانه. وهم ينكرونه إلحاداً وكفراً، فقالوا لجهم: ألست تزعم أن لك إله؟ قال: نعم، قالوا: فهل رأيت عين إلهك؟ قال: لا، قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قالوا: هل شممت له رائحة؟ قال: لا، قالوا: فما يدريك به إذن؟.

---

(1) ومذهب الجبر يسمى أيضاً مذهب القدر لأن أصحابه يقولون إن الإنسان بين يدي القدر كالريشة في الهواء: فيقال عنهم (القدرية والجبرية).

(2) هو أبو محرز جهم بن صفوان، وكان مولى لبني راسب من الأزد وأصله من (سمرقند) وقد أخذ (مزيته) عن الجعد بن درهم، وكانت خاتمة حياة جهم أن خرج على الدولة الأموية مع الخارجين فوقع في الأسر بيد القائد الأموي (مسلم الأحوزي) فقتله سياسياً لا دينياً وكان ذلك عام 128هـ.

(3) يراجع في هذا البحث الطبري في تاريخه ص128 وفي كتابه (الرد على الجهمية والمعتزلة) وكتاب الفصل بين الملل والنحل لابن حزم.

(4) هو مقاتل بن سليمان والنحل لابن حزم.

(5) السمنية هم جماعة ملحدون حسيون لا يؤمنون إلا بالحس كما يوجد الآن كثير من هؤلاء.

قال جهم: ألستم تزعمون أن فيكم روحاً؟ قالوا: نعم، قال: فهل رأيتم روحكم؟ قالوا: لا قال: فهل سمعتم صوتاً أو شممتم رائحة لروحكم؟ قالوا: لا، قال فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان[1].

آراء جهم الكلامية

لقد أوَّل جهم آيات الصفات كلَّها، الواردة في القرآن الكريم أو الحديث النبوي وجنح إلى التنزيه المطلق، ومن هنا أنكر أن يكون لله تعالى صفات غير ذاته أولاً.

وثانياً: أنكر أن يكون مرئياً في الآخرة.

ثالثاً: أنكر أن يتكلم حقيقة.

ورابعاً: قرر بأن القرآن مخلوق[2].

ويرى بعض الباحثين أن جهماً بنى مذهبه على ثلاث آيات، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وأنه تأول القرآن على غير تأويله، وكذب بأحاديث الرسول ﷺ، وزعم أن من وصف الله سبحانه بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حديث عنه رسوله كان كافراً، وكان من المشبهة، أي الذين يشبهون الله تعالى بخلقه والله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وكان جهم يقول: لا يخلو من الله مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم ولا يتكلم ولا نظر إليه أحد في الدنيا، ولا ينظر إليه أحد في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف، ولا يدرك بعقل، ولا له غاية ولا منتهى.

---

(1) كتاب الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل ص11.

(2) تاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال القاسمي ص13.

وهو وجه كله، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو بصر كله، وهو نور كله، وهو قدرة كله، وليس له أعلى ولا أسفل، ولا نواح ولا جوانب، ولا يمين ولا شمال، ولا هو خفيف ولا ثقيل، ولا له لون ولا له جسم وكل ما خطر على قلبك شيء تعرفه فهو على خلافه[1].

ومن هنا قال الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال: (أنه تعالى ليس بشيء).

وخلاصة مذهب جهم: أنه نفى عن الله سبحانه الصفات التي تؤدي إلى تشبيهه بمخلوقاته، وأثبت له صفتي الفعل والخلق فقط، ولا يصح أن تتصف المخلوقات بهاتين الصفتين، وإذا انتفت عن المخلوقات هاتان الصفتان لا يكونون مختارين، وهذا أساس قوله بالجبر.

ونفى أن يكون الله متكلماً لأن الكلام من صف المخلوقات فلا يوصف الله به، وأيضاً، يلزم من اتصافه بصفة الكلام أن يكون له لسان، فيكون مشابهاً للحوادث ولما كان القرآن كاملاً، وهو مضاف إلى الله سبحانه، فلا تكون إضافته له إلاَّ على معنى أنه مخلوق له، لا كلام له: إذن يكون القرآن مخلوقاً لله.

الحكم على آراء جهم:

أما نفي الصفات فربما تجر إلى أن يتصف الباري بأضدادها، فنفي الكلام يجر إلى البكم ونفي السمع يجر إلى الصمم وهكذا، وربما كان قوله بخلق القرآن يريد أن يجعل الله وحده هو المختص بالقدم، كما أنه هو المختص بالبقاء الدائم، وهل هو مخلص في عقيدته أم يريد الفساد؟ فكتّاب الفرق يقولون: إن آراءه مستوردة من جعد بن درهم الذي استوردها من مصدر خارجي.

---

(1) كتاب الرد على الجهمية والزنادقة لأحمد بن حنبل ص12 راجع تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور علي مصطفى الغرابي ص15 وما بعدها.

الجعد بن درهم والجبر

لقد كثرت في العصر الأموي الآراء المتطرفة، والسبب في ذلك ضعف سلطان الدين شيئاً فشيئاً، ودخول أمم غريبة تحت لواء الدين، ولذا نجد أن من يثيرون هذه الآراء حول العقائد إنما هم من الموالي، فجهم كان مولى لبني راسب، وجعد بن درهم هو مولى لبني الحكم وكان يسكن دمشق، فهو لم ينشأ في بيئة الرسالة، وإنما نشأ في بيئة أخرى كانت محلاً لجدل كلامي، وكانت موطناً لأهل دين آخر وهم النصارى، فجعد بن درهم كان مربياً لـ (مروان بن محمد) آخر خليفة من خلفاء الأمويين، وكان جعد يلقن مروان آراءه الفاسدة التي اعتقدها، وأصبح يلقب (بمروان الجعدي)[1] ولما تطرف جعد وأظهر آراءه بدمشق طرده بنو أمية منها وهرب إلى الكوفة فاجتمع هناك بجهم بن صفوان، فتعلم منه هذه الآراء، وأخذ بدوره ينشرها ويدافع عنها.

فمن هذه الآراء الفاسدة:

أولاً: قوله بخلق القرآن.

ثانياً: أنه قال بالتعطيل[2].

ثالثاً: قال بالقدر أي الجبر.

أما القول بخلق القرآن: فجعد أول من تكلم به من أمة محمد ﷺ ومعناه أن القرآن مخلوق لله وإذا كان مخلوقاً لله فهو حادث، ومنشأ هذا القول: هو التعطيل.

ومعنى التعطيل: قول الجبرية لا يصح أن يوصف الله سبحانه بصفات يتصف بها البشر؛ كالكلام، فلا يقال: الله متكلم، فنعطل بهذا القول معنى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: 164] والقدر هو الجبر كما تقدم.

---

(1) سرح العيون لابن نباتة ص185 وتاريخ الجهمية للشيخ جمال الدين القاسمي ص27.

(2) أي ترك العمل بظاهر الأخبار: نحو قولهم: (ما كلم الله موسى ولا اتخذ إبراهيم خليلاً) يقولون الظاهر غير المراد.

إذن: إن مروان تعلم من جعد القول بخلق القرآن والقدر[1].

آراء جعد الكلامية:

تكاد تكون آراء جعد كآراء جهم لأن الثاني تلميذ للأول تلاقيا في الكوفة، وإن جهماً تعلم من جعد هذه الآراء وأخذ ينشرها. وأبرزها كما قلنا ثلاثة: (خلق القرآن، والتعطيل، والقدر).

أما قوله بخلق القرآن فمعناه أن القرآن مخلوق الله، وإذا كان مخلوقاً كان حادثاً، وإذا كان حادثاً لا يكون كلام الله، وهذا ما قاله جهم في القرآن.

والمعتزلة يذهبون إلى هذا الرأي أيضاً في القرآن كما مر وسيأتي.

وأما قول جعد بالتعطيل فمعناه كما رأينا عند جهم: أنه لا يصح أن يتصف الله سبحانه بصفات يتصف بها البشر كالكلام وضده وهو البكم، فلا يقال (الله متكلم) كما لا يقال (الله أبكم) لأن كلا الوصفين يصح أن يتصف بهما البشر، ومن هنا أتت الفتنة بخلق القرآن التي قال بها المعتزلة، ولو كانوا يعللون بغير تعليل الجهمية والجعدية.

فالمعتزلة يرون - كما سيأتي - أن القرآن حادث، ولا يصح أن يتصف الله سبحانه بالحوادث، كما لا يصح أن يكون القرآن قديماً - كما يزعمون - لأنه لا قديم إلا الله.

وأما قول جعد بالقدر (الجبر) فهو مطابق لقول جهم: وهو - كما يزعمون - أن الإنسان مجبور، وأنه كالريشة المعلقة في الهواء، وأن الأفعال تنسب إليه مجازاً، كما يُنسب إلى الشمس ضوءها.

ولكن من أين لجعد هذه الآراء؟ فهل يمكن أن يكون مصدرها الكتاب والسنة اللذين هما المصدران للعقيدة الصحيحة عند المسلمين؟.

فالجواب: كلا، وذلك لأننا إذا نظرنا إلى قوله: (بالتعطيل) نجد أنه يتعارض مع ما صرح به القرآن من وصف الله تعالى بأوصاف كثيرة يجب الأخذ بها، وإذا نظرنا

---

(1) تاريخ الجهمية السابق 27، وتاريخ الجهمية والمعتزلة لابن عساكر ص27.

إلى ما ذهب إليه من القول (بالجبر) نرى أن القرآن الكريم لم يقطع في شيء من هذا، فلم يقل (إن الإنسان مجبور) كما لم يقل (إنه مختار) وبعضها يدل على الاختيار كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وأما رأيه في خلق القرآن فلم يتعرض القرآن ولا السنة له.

إننا نجد الجواب عند بعض المؤرخين، فهذا ابن نباتة المصري يروي لنا في كتابه (سرح العيون) أن الجعد أخذ ذلك (القول بخلق القرآن) من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ وكان يقول بخلق القرآن، وكان زنديقاً زيادة على كفره.

لم يرضَ المتقدمون من خلفاء المسلمين من بني أمية بهذه الآراء الفاسدة؛ لأنهم كانوا من عنصر عربي خالص، يفهمون كتاب الله على حقيقته، ولقربهم من نور النبوة[1] وتمسكهم بالمصدر الصحيح لعقيدة المسلمين، وهو الكتاب والسنة، ولذلك نجد هشام بن عبد الملك، الذي أظهر الجعد آراءه في أيامه يأمر بالقبض عليه ويرسله إلى واليه على العراق (خالد بن عبد الله القسري) ويأمره بقتله فيحبسه (خالد) ولا يقتله، فيعلم بهذا هشام، فيكتب إلى (خالد) يلومه، عندها عجل خالد بقتله، بعد أن خطب خطبة عيد الأضحى وقال في آخرها: انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: (ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً) فتعال الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه[1].

(1) تاريخ الجهمية للشيخ جمال الدين القاسمي ص27 وتاريخ الجهمية والمعتزلة لابن عساكر ص 27 وكتاب الفرق الإسلامية للدكتور علي مصطفى الغرابي مدرس الفلسفة وعلم الكلام بكلية أصول الدين (سابقاً) بالأزهر الشريف ص22 وما بعدها.

مَذهَب الاختيَار

نشأة هذا المذهب :

لقد وجد في عصر بني أمية أيضاً مذهب جديد هو مذهب الاختيار، نشأ كردٍّ فعل في مقابلة مذهب القول (بالجبر) وأصله لرجلين أيضاً (غيلان الدمشقي ومعبد الجهني) يقول هذا المذهب بعكس المذهب السابق؛ أي أن الإنسان ليس مجبوراً، بل هو مختار حر فيما يأتي ويذر من الأعمال، له أن يفعل هذا ويترك ذاك، لا سلطان لأحد على إرادته، ينتقل متى شاء. وإلا كان كالآلة، أو كالجماد، وحينئذ لا يكون لتكيفه معنى، ولا لإثابته وعقابه حق.

غيلان الدمشقي

هو غيلان بن مروان، ومروان هذا كان مولى لعثمان بن عفان [1] ﷺ وكان ابن المرتضى يقول عنه: «واحد دهره في العلم والزهد والدعاء إلى الله، وتوحيده وعدله».

آراؤه:

كان يقول بالاختيار، أي أن العبد قادر على أفعال نفسه فهو الذي يترك أو يأتي الخير بإرادته وقدرته، ويترك الشر أو يفعله باختياره أيضاً وليس للقدر سلطان عليه، ولقوله هذا عده ابن المرتضى من الطبقة الرابعة للمعتزلة[2] وأما رأيه بالإيمان فإنه يذهب فيه إلى رأي المرجئة؛ أي أن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى وبرسله (عليهم السلام)، وإن مرتبة جميع الأعمال بعد مرتبة الإيمان.

---

(1) المنية والأمل لأحمد بن يحيى المرتضى ص15 الملل والنحل ج1 ص147.

(2) المصدر السابق، نفسه.

أي أن العبد إذا حقق الإيمان بالقول والمعرفة فلا يكون مطالباً بعد هذا بالعمل إلاَّ على سبيل التراخي، وإن هذا التراخي في العمل لا يضر إيمانه، لأنه تحقق بالقول والمعرفة، ورأيه في القرآن كرأي جهم؛ أي أنه مخلوق وليس بقديم.

وكان رأيه بصحة الإمامة من غير قريش، وإن كل من كان قائماً بالكتاب والسنة يصح أن يكون إماماً للمسلمين بشرط إجماعهم على إمامته، وكان كالمعتزلة في نفي الصفات الثبوتية كالعلم والقدرة والإرادة.

وخلاصة آرائه:

1 - القول بالاختيار، 2 - الإيمان معرفة وقول وأن العمل ليس داخلاً فيه، 3 - القول بخلق القرآن، 4 - نفي الصفات الثبوتية، 5- إن الإمامة تصح لغير القرشي.

ولكنه لم يشتهر إلاَّ بقوله في القدر، أي أن لا قدر، وكان هذا القول سبب قتله كما سيأتي.

والسؤال المطروح هنا: هل آراء غيلان أصيلة من الإسلام أم دخيلة؟ قد اختلف المؤرخون في ذلك، فبعضهم يقول: إن غيلان أول من تكلم بالقدر[1] ويقول البعض الآخر: إن غيلان أخذ القول بالقدر عن الحسن بن محمد بن علي بن الحنفية[2] ويرى بعضهم أن أول من قال بالقدر هو معبد الجهني[3] وهذا ثابت في صحيح مسلم، واللفظ له، وفي البخاري وأكثر كتب السنن عن يحيى بن يَعْمرَ قال أول من قال في القدر بالبصرة معبدُ الجهني، فانطلقت أنا وحميد ابن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) داخل المسجد فاكتنفته أنا

---

(1) سرح العيون لابن نباتة.

(2) المنية والأمل لابن المرتضى.

(3) هو معبد بن خالد الجهني، وكان صاحب عطاء بن يسار وكانا يجلسان معاً إلى مجلس الحسن البصري ويقولان له: (إن هؤلاء الذين يتعللون بالقدر في فعل المعاصي يسفكون الدماء ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر. كذب أعداء الله) وقد خرج معبد مع ابن الأشعث على الحجاج فقتله الحجاج صبر عام 80هـ.

وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتلقفون العلم، وإنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف[1] قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب.. وساق الحديث بطوله[2] وبعد هذا وذاك يروي لنا المقريزي في خططه أن أصل القول بالقدر إنما هو لرجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر وهو (أبو يونس سنسويه) من الأساورة إلاَّ أن معبد هو الذي أخذ عنه هذا الرأي لا غيلان، ولكن غيلان أخذه من معبد ونشره وجادل فيه وقتل من أجله كما سيأتي.

موقف القرآن الكريم من مبدأ الجبر والاختيار

إن القرآن الكريم لم يصرح لنا بأن الإنسان مجبور على أفعاله وأنه لا اختيار له مطلقاً وأنه كالريشة في مهب الرياح، كما لم يصرح أيضاً بأن له الاختيار المطلق، وإنما نراه يعبر تارة عن الإنسان بما يفيد أنه مسلوب الاختيار. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الدهر: 30] وتارة يعبر بما يفيد أن الإنسان مختار كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: 29] فما الحكمة والسر في ذلك؟.

والجواب على هذا: أن القرآن لو صرح بأن الإنسان مسلوب الاختيار دائماً لما كان هناك معنى للمسؤولية، ولقد سقطت المسؤولية لسقط الجزاء على الأعمال فلا يكون هناك فرق بين المحسن والمسيء، ولو صرح القرآن بأن الإنسان له الاختيار المطلق

---

(1) إن الأمر أنف، أي مستأنف استئنافاً من غير سابق قضاء وقدر وإنما هو مقصور على اختيارك ودخولك فيه. النهاية لابن الأثير ج1 ص75.

(2) هو حديث جبريل المشهور وفيه (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره).

في أفعاله حتى أنه يقدر على كل ما يريد لكان في هذا ما يشبه أن يكون مشاركة لله في خلقه، على أن الواقع يكذب الجبر المطلق للإنسان، كما أنه يكذب الاختيار المطلق له، لكن ما مدى هذا الجبر وما مدى هذا الاختيار؟ وإلى أي حد يكون مقدار الجبر عند الإنسان، وإلى أي حد يكون مقدار الاختيار عنده؟.

إن أمر اختيار الإنسان أو جبره من المسائل التي تختلف فيها النفوس.

وكل أمر تختلف فيه النفوس لا يمكن ضبطه تحديداً، ولو فتح باب التقدير فيه للنفوس لذهب به بعيداً عن المقصود، فإن القرآن يعبر عن الاختيار والجبر تعبيراً كلياً بحيث لا يخرج به إلى أحد الجانبين، أو ينص فيه على أحد الطرفين.

فمشكلة الجبر والاختيار مشكلة صعب على الإنسان إدراكها، وهي دائماً محل خلاف عند أرباب الديانات وعند الفلاسفة أيضاً، ولم يقطع فيها برأي، فوقف القرآن فيها عند هذا الحد، وإنما عبر عنها بآيات مختلفة تدل في مجموعها على أن للإنسان اختياراً بمقدار ما يصحح مسؤوليته، لا اختياراً مطلقاً يجعله يخرج عن حدوده البشرية، ولا جبراً مطلقاً يسلب عنه المسؤولية، ومن يتدبر آيات القرآن لا يجدها تخرج عن هذا المعنى، وبحسب الظاهر: إن الإنسان مختار عند الوسائل مجبور عند النتائج، فقد يقوم بتهيئة سائر الوسائل لسفره إلى الحج مثلاً وفي آخر لحظة يحدث للطائرة أو السيارة حادث فيعجز عن السفر، أو يسافر فيحدث الحادث أثناء الطريق فيجبر ويقهر[1].

نهاية غيلان

اتفق المؤرخون الذين كتبوا عن غيلان على أن هشام بن عبد الملك هو الذي قتله، ولو اختلفوا في سبب قتله، وأقوى ما يروى أن هشاماً قتله لقوله في القدر. قال ابن نباتة[2]: لما بلغ هشام بن عبد الملك مقالة غيلان في القدر أرسل إليه وسأله: يا

(1) راجع في هذا البحث كتاب تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام لأستاذي الدكتور علي مصطفى العزابي ص27 وما بعدها.

(2) ابن نباتة: هو محمد بن محمد جمال الدين بن نباتة مولده ووفاته في القاهرة توفي 768هـ الأعلام ج7 ص368.

غيلان ما هذه المقالة التي بلغتني عنك في القدر؟ فقال: يا أمير المؤمنين هو ما بلغك، فأحضر من آحببت يحاجُّني فإن غلبني ضربت رقبتي.

فأحضر الأوزاعي، فقال له الأوزاعي: يا غيلان! إن شئت ألقيت سبعاً، وإن شئت خمساً، وإن شئت ثلاثاً. فقال غيلان: ألق ثلاثاً، فقال له الأوزاعي: (أقضى الله على عبد ما نهى عنه)[1] قال غيلان: ما أدري ما تقول، قال الأوزاعي: (فأمر الله بأمر حال دونه)[2] قال غيلان: هذه أشد من الأولى، قال الأوزاعي: (فحرم الله حراماً ثم أحله)[3] قال غيلان ما أدري ما تقول: فأمر به هشام فقطعت يداه ورجلاه فمات.

محنة خلق القرآن

ظهرت هذه المسألة بدمشق في أواخر العصر الأموي على يد الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية[4] فطرده بنو أمية (كما تقدم) فذهب إلى الكوفة واجتمع بجهم بن صفوان الذي ساعده على نشر آرائه التي استقاها جعد من الأعصم اليهودي، فأصل هذه المسألة يهودي، وقلنا: إن فكرة خلق القرآن نشأت من التعطيل وهو عدم جواز وصف الله سبحانه بما يوصف به البشر، إذن ليس هو متكلم والقرآن مخلوق له، وليس بكلامه.

لم يتقبل بنو أمية هذا الكلام فأرسل هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسري والي العراق يأمره بالقبض على الجعد وقتله . . فقتله يوم العيد كما مر، وقُتل تلميذه الجهم بن صفوان عام 128، عندها سكنت فتنة خلق القرآن بقتل أصحابها ولكنها اشتعلت من جديد على يد بشر بن غياث المريسي في عهد الرشيد،

---

(1) فالجواب نعم قضى الله على كثير مثلاً بالزنى وقد نهى عنه.

(2) الجواب نعم أمر الله الكفار بالإسلام وحال دونه.

(3) فالجواب نعم حرم الله أكل الميتة ثم أحلها للمضطر، وهذا مخالف لما يقول غيلان، راجع زيادة في التفصيل مذاهب الإسلاميين ج1 ص102 وما بعدها.

(4) جعد هذا خال مروان بن محمد حيث إن مروان بن أمَة.

وأراد الرشيد قتله لو ظفر به ولكنه لم يظفر، وبعد موت الرشيد وتوليته الأمين، وقيام الفتن كانت بذور هذه المسألة تنمو فلما قتل الأمين وولي المأمون، وكان المأمون ذا ثقافة عالية حرَّ التفكير يحب الفلسفة، فكان الاعتزال أقرب المذاهب إلى نفسه فاعتنقه وأصبح المعتزلة أصحاب الحول والطول في عهده، وكانت المعتزلة قد تسربت إليه آراء الجعد وتلميذه جهم بن صفوان.

وقالوا: إن صفات الله تعالى عين ذاته، فالقرآن زائد على الذات العلية إذن هو مخلوق، لأنه لا يجوز أن يوصف بالقدم غير الذات العلية.

اختمر في ذهن المأمون أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، وكان قاضي القضاة عنده أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي الذي أقنعه بذلك عام 218 فأرسل إلى والي بغداد[1] إسحاق بن أبي إبراهيم كتاباً مطولاً يذكر فيه المعتزلة وعقيدة التوحيد لديهم وتنزيه الخالق عن الشبيه والمثيل، ثم أوعز إليه أن يجمع العلماء لديه ويمتحنهم فيما يعتقدون في خلق القرآن، وقال أنه لا يثق إلا بمن خلص توحيده، ولا يقبل شهادة من لم يقر بأن القرآن محدث ومخلوق.

ثم طلب المأمون إحضار كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين بين يديه ليقروا بأن القرآن مخلوق، فحضروا فأقر أكثرهم خجلاً من المأمون، ولكن أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح امتنعا من الإقرار، فشدا في الحديد، ووجها إلى المأمون بطرسوس، كما وجه معهما كثير من الممتنعين، ولكن المأمون مات قبل وصولهم كما مات بالطريق محمد بن نوح، فتركزت رئاسة المعارضة بأحمد بن حنبل، لذلك خلّى والي بغداد سبيل الجميع إلاَّ أحمد بن حنبل، وكان المأمون قد عهد بالخلافة إلى أخيه المعتصم، وأوصاه بأحمد بن أبي دؤاد، وأن يسير بسيرته بمحنة خلق القرآن، وكان المعتصم عسكرياً قليل الثقافة بالدين، فلم يعمل أكثر من الكتابة إلى الأمصار بالاستمرار بامتحان الناس بخلق القرآن، وأمروا أن يعلموا الصبيان ذلك، وقد قاسى الناس من ذلك مشقة عظيمة، وقتل عليها

(1) كان المأمون إذ ذاك بطرسوس، راجع هذا الموضوع بتاريخ ابن الأثير ج5 ص222.

كثير من العلماء، وضرب أحمد بن حنبل فأصر على الامتناع من القول بخلق القرآن وتحدى الدولة، فأعجب المعتصم بشجاعته، ثم مات المعتصم، وخلفه الواثق، والمسألة بحالها، وكان الواثق مثقفاً ثقافة عالية.

فلم يتعرض لأحمد بن حنبل بسوء، وحدث في زمن الواثق ما رواه المسعودي في مروج الذهب[1] بأنه أقدم على الواثق شيخ جليل من أهل الفقه والحديث (من أهل إذنه من بلاد الشام) حسن الهيئة مقيداً بالحديد، فسلم على الواثق غير هائب، فقال له الواثق: يا شيخ أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فيما يسألك، فقال الشيخ يا أمير المؤمنين، أحمد يقل ويضعف عن المناظرة، فاستشاط الواثق غضباً وقال: أبو عبد الله يضعف عن المناظرة؟ فقال الشيخ: هون عليك يا أمير المؤمنين: أتأذن لي في مناظرته؟.

فقال الواثق: قد أذنت لك.

فأقبل الشيخ على أحمد فقال: يا أحمد! ماذا دعوت الناس إليه؟.

قال أحمد: إلى القول بخلق القرآن.

فقال الشيخ: مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها داخلة في الدين فلا يتم الدين إلاَّ بها؟.

قال: نعم.

قال الشيخ: رسول الله ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم؟.

قال: بل تركهم.

قال الشيخ: فهل علمها رسول الله ﷺ أم لم يعلمها؟.

قال أحمد: بل علمها.

قال الشيخ: فلم دعوت الناس إلى ما لم يدعهم رسول الله ﷺ، وتركهم كما يعتقدون؟.

---

(1) مروج الذهب لأبي الحسن المسعودي ج2 ص467.

فسكت أحمد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين هذه واحدة، ثم التفت إلى أحمد فقال:

يا أحمد: قال الله في كتابه العزيز: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] فقلت أنت لا يكون الدين تاماً إلا بمقالتكم بخلق القرآن، فالله أصدق في إتمامه وإكماله أو أنت في نقصانه؟.

فأمسك أحمد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين وهذه ثانية.

ثم قال الشيخ: أخبرني يا أحمد عن قول الله عز وجل في كتابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67] فمقالتك هذه التي دعوت الناس إليها مما بلغه الرسول ﷺ للأمة أم لا؟.

فأمسك أحمد.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين وهذه ثالثة.

ثم قال الشيخ: يا أحمد لما علم رسول الله ﷺ من مقالتك التي دعوت الناس إليها وإلى القول بها من خلق القرآن أوسعه أن أمسك عنهم أم لا؟.

قال أحمد: بل اتسع ذلك.

فقال الشيخ: وكذلك وسع أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، فيا أمير المؤمنين إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسع الله علينا.

قال الواثق: نعم لا وسع الله علينا إن لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ثم قال الواثق: اقطعوا قيده، وأطلقوا سراحه، فلما قطعوا القيد جذبه الشيخ منهم، فقال له الواثق: لماذا جذبت القيد، فقال الشيخ: أريد أن أجعله بين لحمي وكفني حتى أقول:

يارب! سل عبدك هذا لم قيدني ظلماً وأراع فيَّ أهلي؟ فبكى الواثق وبكى الشيخ والحضور، فقال الواثق اجعلني في حلٍّ، فقال الشيخ ما خرجت من منزلي إلاَّ جعلتك في حلٍّ إعظاماً لرسول الله ﷺ وقرابتك منه، فتهلل وجه الواثق وقال للشيخ: أقم عندي آنس بك، فقال: بل مكاني أنفع لي، أنا شيخ كبير ولي حاجة[1] فعرض عليه عطاء فأبى أن يأخذ. ومن أواخر عهد الواثق فترت هذه المحنة، ولما مات الواثق، وبويع للمتوكل أعلن نهاية القول بخلق القرآن وكان عام 234هـ، وبذلك انتهت هذه المحنة التي لم يحصد منها المعتزلة إلى كراهة الناس لهم، وسخط المسلمين عليهم، ولكننا نتساءل: ما هي الأسباب التي جعلت المعتزلة والدولة يتورطون في حمل الناس على القول بخلق القرآن؟.

والجواب على هذا: أن المأمون تورط مقتنعاً بفكرته ظاناً أن الناس لثقتهم بعلمه ودينه يتبعونه على رأيه بدون مناقشة، وما كان يخطر بباله أن يحدث ما حدث، وأبى أن يتراجع كما أبت المعتزلة أن يتراجعوا حفظاً للكرامة وماء الوجه، وإلا فالمشكلة ليست عويصة إلى هذا الحد، فكلام الله النفسي قديم لأنه صفة ثابتة للذات العلية، والحروف المطبوعة والأصوات التي نلفظ بها القرآن حادثة.

ولكن بعض الحنابلة تشددوا فزعموا أن القرآن بحروفه وأصواته قديم.

(1) راجع مروج الذهب للمسعودي ج2 ص468.